الفصل الخامس عشر

في الأدوار الأثرية واتقان الصناعة المصرية

من تأمل في هذه الآثار الهائلة المنتشرة في هذا الوادي وعلى جباله علم أن القوم ما سلكوا هذا الطريق الوعر إلا لغايات كانت عندهم من أهم الأمور ذوات البال وهي إما دينية أردنيوية أو كلتاهما معًا فقال فريق من الناس أن الملوك لما خافوا من رعايتهم أن تنبذ طاعتهم ظهريًا قصدوا كسر شوكتهم وإماتة قلوبهم بتشغيلهم في هذه الأشغال الشاقة كي لا يجول بخلدهم رفع لواء العصيان عليهم وقال فريق آخر أن هذا القول مردود بداهة لأنه لو كان هذا هو الغرض لكانت المنافع العامة أخرى لأنها أنفع من إقامة المسلات وبناء الأهرام وعمل التماثيل الهائلة ولا يخفى كثرة تلك المنافع وتنوعها وقال آخرون أن الغرض منها هو تخليد ذكر أصحابها على توالي الأيام والسنين مادامت باقية في الدنيا وقال غيرهم ليس ذلك من الحقيقة في شيء لأنه لو كان صحيحًا لكانوا إكتفوا بكتابة أسمائهم وتواريخهم على الصخور والجبال بدون أن يذكروا أسماء معبوداتهم معهم بل ما كانوا يصورونها فوق أسمائهم على جميع آثارهم والظاهر أنهم كانوا يرون أن أحسن المصنوعات وأكبر المباني تقربهم إليهم زلفى فلذا كانوا يميلون إلى تشييد العمارات الفخيمة ولما كان هذا هو مطمح نظر قدماء المصريين برعوا في كافة الصنائع على إختلافها سيما ما يختص بالديانة كالبناء ونحت الأحجار وصقلها وتفصيلها وأحكام هندستها التي أدهشت المتأخرين وأخرست ألسن الفصحاء وقد قسمها بعضهم إلى خميسة أدوار كلية.

(الدورالأول) يشتمل على صنائع العائله الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وفي هذا الدور بنيت أعظم المباني البالغة في الضخامة والإتقان إلى حد يحصراللبيب عن وصفه كالأهرام التي رتبوها من الشمال إلى الجنوب بحسب ترتيب العائلات فجعلوا أهرام العائلة الرابعة بالجيزة وأهرام الخامسة بأبي صير وأهرام السادسة بسقارة وأهرام العائلات الصغيرة التي قامت بين الحادية عشرة والثانية عشرة بدهشور وأبي رواش وميدوم على قول بعضهم وأهرام الثانية عشرة بالفيوم لكن دلت لقايا جبل دهشور أن أهرامه كانت للعائلة الثانية عشر إذ وجد على بعض الحلى اسم الملك أوزَرْتَسِنْ والملك أمِنِمْحَعَتْ وربما كان بعض أهرام هذا المكان للملك (سَنَفْرُو) أحد ملوك

العائلة الثالثة على قول بروكش باشا أو الرابعة على قول غيره حيث أظهر الحفر في بعض المساطب التي هناك اسم هذا الملك الأخير وهذه المساطب قريبة من هرم مهدوم لعله له ولما فتحته مصلحة حفظ الآثار في أوائل شهر فبراير سنة ١٨٩٥ وجدته أخرساً والظاهر أن أهرام الفيوم للعائلة الثانية عشر أيضاً ويلي الأهرام أبواهول ومعبده وقد سبق تفصيل ذلك كما إشتهرت بعمل التماثيل ودقة الصنعة كتمثال الملك خفرع أوكفرم الباني للهرم الثاني بالجيزة (كما تراه في شكله).

وليست شهرة هذا التمثال فقط من حيثية الأقدمية وأن له ستين قرناً لما إشتمل عليه من حسن الصنعة وإفراغه في قالب بديع جداً مع سبعة مجسمة وجمال هيئتة الدالة على سمو الفنون المصرية وأن المصريين كانوا في درجة عالية من إتقان الصناعة وكالتمثال المتخذ من خشب الجميز المعروف باسم شيخ البلد الموجود الآن بالمتحف المصري وما أظن أن الصناعة خشب الميز المعروف باسم شيخ البلد الموجود الان بالمتحف المصرى وما أظن أن الصناعة المصرية سمحت بإيجاد أعلى منه حيث ترى الشخص الذي صنع على شكله كأنه على قيد الحياة خصوصاً هيئة الرأس ودقة الأعضاء وإستدارة الجسم وهو يكذب النظر بما عليه من طبقة الطلاء الخفيفة التي أكمل بها المصور بديع صنعته ومنها تمالان وجدا بجوار هرم ميدوم بمديرية بني سويف وهما رجل وإمرأة جالسان على نصابين من الحجر يتخيل كل من إستعرضهما أنهما ينطقان ويظن من مر أمامهما أن مقلتي عينيهما يتحولان معه إذا تحول عن يمينهما أو يسارهما وعليهما من الطلاوة والدقة ما يدل على تمهر أهل ذلك الوقت في محاكاة الأمور الطبيعية فإنهم جعلوهما في الحسن غاية وفي الإتقان آية وكان تقادم الأيام لم يزدهما إلا جدّة وليس الخبر كالعيان.

(الدورالثانى) عبارة عن العائلة الثانية عشرة فقط وفيه عاد لمصر شبابها فأخذت تدأب في العمل وتعانيه وكأنها إنصبت في قالب ثان ومازالت تستسهل الصعب وتقتحم الخطب وتجدد الصنائع وتقترح المنافع حتى رقت أوج الكمال بعدما هوى نجمها ومال ومما ينسب إليها مقابر بني حسن المنحوتة هي وعمادها دفعة واحدة ولله درّ الصانع الذي جعل هؤلاء الإسطوانات على شكل باقات الأزهار تحمل سقفاً من الجبل متصلًا بها وقد مر ذكرها في الرحلة العلمية بها ومنها مسلة فرعون الموجودة الآن بقرية عين شمس، ومسلة أخرى بقرية بجيج بالفيوم ومنها بعض المغارات بجبل أسيوط وقد برهنت لنا هذه الصناعة على أن ذلك العصر كان من أشرف أعصار التواريخ المصرية كما أنه كان من التفنن في كل شيء غير أن مدته كانت قصيرة حتى صدق عليها

قول من قال ما سلم حتى ودع وما أفاق إلا وتصدع.

(الدور الثالث) يبتدئ بإجلاء عرب الرعاة عن مصر وهو عبارة عن العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وجزء من العشرين وفيه ظهرت مصر بأعظم مظهر وبرزت بأسمى منظر وإنحصرت أعمالها في أمرين عظيمين وهما فتوح البلاد البعيدة وإضافتها إلى ملك مصر وتشييد العمارات العديدة كمعبد جبل البركل القريب من أبي حمد وقلعتي سمنة وقمة فيما فوق وادي حلفه بشيء يسير ومعبد أبسمبل بتلك الجهة وبناحية عمادة من بلاد النوبة ومنها المعبد العظيم الذي كان بجزيرة أسوان وكان من أجمل المعابد المصرية القديمة ومنها الباب المتخذ من حجر الصوان المعشق بساحة هيكل امبو والتصاوير البارزة الموجودة بجبل السلسلة مما يحدث عن سيرة الوقائع الحربية أما مدينة طيبة فلم تزل مشرقة الأنوار بجمال آثار هذه الأيام وبهجة عماراتها الفاخرة حيث ترى هناك على الجانب الأيسر من النيل هيكل الدير البحري ومعبد القرنة ومعبد الرمسيوم المشتمل على أكبر التماثيل المصرية المصنوع من الصوان الأزرق البالغ طوله سبعة عشر متراً وخمسين سنتياً من المتر وثقله واحد مليون ومائتان وسبعة عشر ألف وثمانمائة واثنان وسبعون كيلوجراماً وهو أحد الآثار المجسمة التي أخرجتها يد الصناعة المصرية لكنه الآن مكسور ملقى على الأرض مشوه الوجه ومنها صنما ممنون البالغ إرتفاع كل واحد منهما مع قاعدته نحو تسعة عشر متراً وسوف يأتي بيان ذلك في الرحلة العلمية ومنها معبد مدينة (أبو) ومقابر ذراع أبي النجا والعصاصيف وقرنة مرعي ومقابر باب الملوك ومعبد الأقصر وتماثيله الجافية ومعبد الكرنك ومسلاته وأساطينه الشامخة وإن لم يكن لهذا الدور إلا ما بقى من رسم كنيسة تل العمارنه الكائنة بجوار قرية الحاج قنديل لكناه فخراً وبرهاناً على تقدم الحرف والصنائع في ذلك العهد الذي هو عصر الرمسيسيين والتحوتميسيين.

(الدور الرابع) عبارة عن العائلة السادسة والعشرين فقط وفيه أخذت الصنائع والعمارة تعود لحالتها الأصلية بعدما كانت إندرجت في خبر كان ونسجت عليها عناكب النسيان بل تميزعما سواها بما فيها من السعة وحسن إفراغ التصاوير المحلاة بها وذكر المؤرخ هيرودوت أن قاعدة هذه الدولة كانت مدينة صا الحجر (التابعة لمركز بسيون غربية) وصارت بهمة ملوكها من أبهج مدن الديارالمصرية فقد شيد فيها الملك (أبرياس) هيكلًا لم يكن دون أفخر العمارات المصرية بوجه من الوجوه وشيد له الملك (أماسيس) باباً كبيراً من أغرب الأبنية وأعجب العمارات يفوق بكثير على سائر الأبواب التي من نوعه من حيث الإرتفاع وزيادة الإتساع

والعناية بإنتخاب أحجاره من أجود الأحجار وأكبرها ووضع عليه من الصور والتماثيل الهائلة ما يفوق الحدود في العظم وكبر الحجم إلى أن قال ومما يوجد بمدينة صا الحجر من الآثار العظمية تمثال هائل إرتفاعه خمسة وسبعون قدماً ولم يقتصر الملك (أماسيس) على تشييد الأبواب فقط بل أحضرإليها معبداً صغيراً متخذاً من قطعة حجر واحد نقله من جبال أسوان وقام بنقله من تلك الجهة ألفان من العمال في السفن على النيل مدة ثلاثة أشهر وطوله من الخارج اثنا عشر متراً وعرضه سبعة أمتار وإرتفاعه أربعة أمتار وزنته بعد طرح فارغة نحو أربعمائة وثمانين ألف كيلوجرام (الكيلوجرام ٣٢٠ درهماً) اه.

وجميع ماذكر صارالآن هباء وتفرقت أحجاره أيدي سباً ولم يبق منه أثر ولا عين ولهذا الدور آثار كثيرة بالمتحف المصري وغيره وجميعها في أعلى طبقات الصناعة ومن تأمل فيما ذكره هيرودوت علم أن هذه الدولة حاولت تقليد أعمال الدولة الخامسة والسادسة بعدما مر عليها ثلاثون قرناً.

(الدور الخامس) وهو الأخير كان مدة البطالسة بمصر ومن نظر لكثرة عماراتهم علم أنه لم يل الديار المصرية من بعد العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة دولة ملوكية أكثر منها آثاراً على شواطئ النيل فإن هؤلاء الملوك البطالسة لم يكتفوا بإصلاح ما كان قد تخرب من الهياكل وإتمام ما كان ناقصاً بل أحدثوا معابد جديدة مثل هيكل الداكة وكلباشن ودبود ودندور ببلاد النوبة خصوصاً هيكل جزيرة البربا (جزيرة أسوان) وجزيرة فليا (أنس الوجود) وفي يوم ١٩ من شهر فبراير سنة ٩٥ وجدت لهم آثار جملة معابد في جزيرة الهيسا القريبة من هذه الجزيرة الأخيرة وبالجملة فقد صيروا هذه البقعة من العجب العجاب الذي يسحر العقول ويبهرالألباب حتى صح أن توصف بالإنفراد بين جميع المناظر الجليلة الموجودة بسائر البلاد ومن جملة آثارهم بالديار المصرية هيكل مدينة أمبو وعمارته من أحسن أنموذجات في العمارة القوية وهيكل مدينة إسنا القديمة الذي لولا ما طرأ عليه من الإحتجاب ببناء منازل المدينة المستجدة لكان يظهر في أحسن مظهر ويبدو لعين الناظرين بأعظم منظر وهيكل ارمنت الذي لحقه الآن من الإنهدام ما بلغ به نهاية التمام ومع كون الملوك البطالسة قلدوا مدينة الإسكندرية من حلية العمارات الجسيمة والآثار الفخيمة بما لم نقف على حقيقة حاله الآن فلم يتركوا مدينة طيبة في زوايا النسيان فإنهم هم الذين أنشؤا بالجانب الأيسر من النيل الهيكل المعروف بدير المدينة والمعبد الصغير الموجود بمدينة (أبو) وعلى الجانب الأيمن شادوا الباب الكبير الموجود وحده في الجهة

الشمالية من الكرنك وغيرذلك أما مدينة دندره وما أدراك ما دندره فإن بها الهيكل العظيم الذي هو عارة أثرية فريدة في بابها وسوف يأتي بيانه في الباب الحادي عشر عند الكلام على تفصيل المعابد المصرية والغرض منها.

وكذللك يشاهد أسماء البطالسة مكتوبة على الآثار بجهة قرية الكاب بإقليم إسنا وفي أخميم وناحية بهبت الحجارة بقرب المحلة الكبرى (بمديرية الغربية) وفي غير ذلك من النواحي ويجب أن يعزي إليهم إنشاء أجمل ما يوجد في سرابيوم وهو مقبرة العجل أبيس بناحية سقارة والتوابيت الكبيرة الحجم التي به ولهذه الدولة جملة تماثيل وآثار كثيرة بالمتحف المصري ومتى ذكر ما يؤثر عن دولة البطالسة فلا ينبغي أن ننس حجر رشيد الذي كان مفتاح سر الكتابة المصرية القديمة بعد أن مكثت المدة المديدة والأعصار العديدة وهي من الأسرار المقفلة والمشكلات المعضلة.